أحمد توفيق المدني

حنبعل

رواية تاريخية

المطبعة العربية بالجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الشباب المغربي . حامل راية الكفاح . في سبيل حرية الأمة وشرف الوطن . أقدم هذه الرواية التي تحيي له صفحة من جهاد أبطاله الأولين . وفيها عبرة وذكرى .

(الجزائر : المحرم الحرام ١٣٧٠)

١٩٥٠

مثلت على مسرح الاوبرا بمدينة الجزائر
نهاراً وليلاً يوم ٩ افريل ١٩٤٨

أشخاص الرواية

· حنبعل	بطل قرطاجنة
· الكاهن الأكبر	رئيس رجال الدين بقرطاجنة
· معطى بعل	شاب انيق من رجال مجلس قرطاجنة
عزري بعل	زعيم من رجال برقة
زرقون	زعيم من رجال حنون
· عطبة	قائد بربري
· صافو	فتاة قرطاجنية . خطيبة معطى بعل
· مازيغ	ملك بربرى
· لاتينيوس روميوس	سفير روما
· أنطيوخس	ملك سوريا
· النعمان	قائد فرقة العرب في جيش سوريا
· ابزوزياس	ملك بتينيا في بلاد اليونان
· الملكة	زوجته
هيلانا	وصيفة الملكة
· فلامينينوس	قنصل رومة وسفيرها
اربعة وزراء	حول انطيوخس
»	حول ابزوزياس
قادة حزبيون	حول انطيوخس وابزوزياس
شيخ من برقة	
رجل من اعيان صيدا	
جنود واتباع ورجال حاشية	

الأدوار الرئيسية مسبوقة بعلامة ·

17

الفصل الاول

مجلس القدماء * في قرطاجنة ، قاعة فسيحة ذات اقبية على شكل المعابد القديمة الشرقية . على يمينها وعلى يسارها مقاعد عديدة مغطاة بالزرابي والاقمشة الرفيعة ، وعلى الجدران طنافس ثمينة ومجموعات من الاسلحة يتخلل كل ذلك تماثيل صغيرة . في اقصى القاعة محراب عظيم يتوسطه الصنم « بعل » وعلى يمينه وعلى يساره شمعدانان كبيران في كل منهما شمعة صفراء موقدة .

الكاهن الاكبر يتوسط القاعة متجها لتمثال بعل * عندما يرتفع الستار . وقد جلس رجال قبيلة حنون * على المقاعد اليمنى . وجلس رجال قبيلة برقة * على المقاعد اليسرى ؛ والجميع ساكنون مطرقوا الرؤوس . ثم يلتفت الكاهن للحاضرين ويأخذ في الكلام . فيرفعون رؤوسهم ويتحركون حركات مختلفة ، واحيانا يهمس بعضهم في اذن بعض . وعلامات الكآبة والغم بادية على وجوههم .

الكاهن الاكبر — الكارثة عظيمة والمصيبة هائلة . ان الفاجعة الرهيبة تحوم حول الوطن . كما يحوم النسر الكاسر حول الفريسة . (يلتفت من جديد صوب الصنم) : يابعل العظيم . يارب القوة والبأس الشديد . منك نستمد الاعانة . فأنقذنا من هذا الكرب العظيم.

الجميع — (يركعون على الركب في خشوع) : النجدة يابعل ! الغوث يابعل !

الكاهن الاكبر — لقد نسينا ربنا ساعة اليسر والرخاء والامن . فنسينا الرب ساعة الشدة والبلاء والخطر . بل انه لمنتقم منا شر انتقام .

عزرى بعل — وهل عندك من نبأ جديد ياحضرة الرباني عن ذيول معركة جاما * وكيف هو حال الجيش الساعة . وأين هو حنبعل ؟

---

* الكلمات التي تليها هذه العلامة ، تجد عنها بيانا في آخر الرواية

الكاهن الاكبر – لقد حلت بكم النقمة يا اهل قرطاجنة : تلاشت جنودكم ، وتفرقت جموعكم . (حركات مختلفة وانفعال ظاهر ، ودوي وسط القاعة . ثم سكوت وتطلع لدلكاهن الاكبر الذى يستمر في حديثه ويقول) : جاءنى الساعة سيار حنبعل ، يعلمنى بان الفرق الرومانية تتقدم نحونا مسرعة : مثلها كمثل الذئاب الضارية المتعطشة للدماء . ولم تبق لنا معركة جاما من قوة نعتمد عليها . ونعتد بها ، الا فئة قليلة من رجال الامة الامناء . أقسموا يمينا مغلظة حول حنبعل . ليموتن موت الشرف والكرامة . فداء الوطن . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . فالمعركة مستمرة...

زرقون – وهل بقت لنا من فائدة الساعة فى استمرار القتال ؟ اما وقد خسرنا معركة جاما . فعلينا الآن ان نستعطف القائد الرومانى شيبيو ؛ عله يرحم ضعفنا . ويشفق علينا . ويصون ارواحنا واموالنا .

عزرى بعل – الويل لكم ثم الويل يا معشر حنون . لأنتم سبب النكبات المتواصلة اولا واخيراً . ان اقدمتم على حرب . فطمعا فى جاه ومال ، ومغانم كثيرة تأخذونها . وإذا مستكم البأساء والضراء ، انقلبتم على اعقابكم خاسئين . تريدون النجاة ، وتبثون روح الهزيمة والانهيار فى الشعب ، فوحق بعل وتانيت ، انكم اعداء الداخل ، اشد خطراً على الامة من اعداء الخارج . تضيعون الشرف فى سبيل المال . وتضحون بمصالح الوطن . ارضاءً لما تأصل فيكم من أنانية .

زرقون – (يقف متهيجا) – كفى . كفى . أما آن لهذه التهم التى تكيلونها لنا جزافاً ان تنتهى ؟. فمن ذا الذى القى بالوطن إلى التهلكة ياترى ؟ أنحن الذين اردنا السلام دوما . أم انتم ياجماعة برقة . وقد استنزفتم دماء الامة فى حروب متواصلة . وطوحتم بالوطن فى شتى المغامرات . فنفذ المال . وقل النصير : حتى اذا ماحلت الاخطار بساحتنا لم نجد لدينا من قوة تقينا بأس الاعداء .

رجل من برقة — ويل لكم ايها الكاذبون ، ان هذا لهو البهتان العظيم . لو لا انكم خنتم حنبعل الكبير . وهو فى أوج عزته . وسمو انتصاره ، وبذلتم اقصى الجهود سراً وعلنا . لمنع المدد عنه . عندما خيم على مدينة رومة ! بعد ما طحن الاعداء وشتت شملهم فى « كانة » ، لكنا الساعة نحن واياكم ندير كاسات الراح فى مدينة روما ، ونتمتع فى جناتها التى تجرى من تحتها الانهار ، وما كنا لنندب اليوم حظ وطننا المنكوب وقد داهمه الاعداء الرومانيون . انكم مكنتم الاعداء من الحياة فى ديارهم ، فجاؤوا ينتزعون الحياة من بين ايديكم فى عقر دياركم .

رجل من برقة — ان من تهاون يوماً تجاه العدو ، كان فى الغد القريب اول ضحايا ذلك العدو .

الكاهن الاكبر — ويلاه ، ويلاه ! رجال شيبيو يسرعون نحو الديار . وانتم لا تزالون فى هذه المجادلات ؟ اما فيكم من بقية صالحة للحياة ؟

رجل من برقة — ان حياتنا ، وحريتنا ، وشرفنا كل ذلك قد اصبح متعلقا بحياة حنبعل . فإذا ما كتبت الآلهة له السلامة ، التففنا حوله ، وعملنا ما يقتضيه الواجب القومى ، والشرف الوطنى . وإلا فقد خسرنا كل شيء . وانتقم الأعداء منا شر انتقام . وازالونا من الوجود .

رجل من حنون — وهل انتم تعلمون اين هو حنبعل الساعة ؟ ام هل لايزال على قيد الحياة ؟ ومن ادراكم انه ليس الان اسيراً مكبلا بالحديد . بين يدى شيبيو ورجاله ؟

رجل من برقة — اخسأ ايها النذل ! ان مثل حنبعل لايسقط اسيراً بين يدى الاعداء . انه رجل يمثل عزة القوم ، ويمثل شرف الوطن . لقد خلق ليعيش مجاهداً وليموت شهيداً ولايتوسط بين الحالتين .

حركة خارج الباب ، يدخل جندى قرطاجنى ممزق الثياب يكاد يموت اعياء وتعباً . يتوسط القاعة ، ثم يسقط على ركبتيه ، ويلتف الجميع حوله لتلقى أخباره ، وهو يستقبل النظارة ، والكاهن الاكبر الى يمينه

الجندي – جئت مسرعاً اخبركم بالكارثة : لقد تبعنا الرومانيون . واقتفوا آثارنا بعدجاما . فقضوا على البقية الباقية من الجند . اما حنبعل والطائفة المختارة من القدماء التى ثبتت معه . فهم يسرعون المسير نحو قرطاجنة . لتنظيم المقاومة دونها . ومحاولة الدفاع عنها . واما الزعيم البربرى عطبة، فقد تخلى عنا . وامر قومه بالتوقف عن الحرب .

الجميع – (فى أسوات مختلفة) خائن . خائن . ياللنذالة خائن. خائن .

رجل من برقة – واين هو ؟ هل قتلتموه ؟

الجندى – انقضت عليه جماعة منا . فاختطفته اثناء الانسحاب من بين رجاله ، واتينا به مكبلا بالحديد . لينظر مجلسكم العالى في امره . حتى يكون عبرة لمن يعتبر .

الكاهن الاكبر – اذهب . وقل لهم يدخلوه الى هنا . اسرع

يخرج الجندى منحنيا ، والجميع يرجعون الى مقاعدهم فى ضوضاء وكلهم يتكلم بحيث لايفهم من كلامهم شيء .

اربعة من الحراس يدخلون بعطبة البربري وهو عارى الجسد الامايستر مايجب ستره ، جسمه مخطط بضرب السياط ، ويداه ورجلاه فى قيود الحديد يرمى به الجند وسط القاعة فيسقط على الارض ، ثم يضربه جندى سوطا ، فينهض على ركبتيه ، ويجيل نظرا حائرا بين الجميع .

معطى بعل – وحق تانيت . ان قلبى لايتحمل رؤية مثل هذا المنظر .

الكاهن الاكبر – ايها الخائن الكنود . يا أحقر الرجال ، اعتمدنا عليك فخنتنا . واقعدناك وقومك مقعداً للحرب ، فتخليت وتنحيت ، وفتحت الواجهة امام العدو ؛ انت سبب النكبة ، وانت معول الخراب ستلقى جزاءك ايها القذر .

عطبة – (فى قوة المستميت) : ويل لكم ايها الظالمون !

(الجميع يتأخرون عنه، وينظرون اليه بدهشة واهتمام)

عطبة – (بحماس فى اعياء وجهد) لست أنا بخائن ايها القوم . وما انا بنذل . انما انا الانتقام . انني نقمة الشعب المظلوم انصبت فوق رؤوسكم .

(تزداد دهشة الجميع ، وينظر بعضهم لبعض ، اصوات مختلفة : اه ٠ آه)

على كواهلنا سموتم . وبسواعدنا وجهودنا نلتم الثروة ، وبدمائنا واشلاء قتلانا فتحتم البلاد ، واحرزتم على الجاه والغنى . ان دقت ساعة الحرب بعثتم بنا نموت دونكم ؛ وندافع عن اموالكم وقصوركم ومقاماتكم الرفيعة . فاذا ما وضعت الحرب اوزارها وأمنتم ، تجبرتم علينا تجبر السادة الاجلاف ، وعاملتمونا معاملة العبيد . كلا ! ان الشعب البربرى ، شعب الامازيغ الاحرار قد قال كلا ! ان كنا سواسية فى وطن واحد ، نمت معا ونحيا معاً ؛ نشقى معاً ونسعد معاً ، كنا واياكم يداً واحدة ، فى السراء والضراء . اما ان تبقوا سادة ، ونبقى عبيداً ، فهيهات . (يصيح بشدة) نعيش احراراً ، أو نموت . (يسقط مغشيا عليه) .

معطى بعل – ياله من خبيث ! يريد ان نموت معاً ! وهل خلقنا نحن لكي نموت ؟

رجال من برقة – اقتلوه اصلبوه .

رجال من حنون – مزقوه ارباً . ارموا به للكلاب ؛ القوا به للشعب يشرب دمه !

يهمون بالفتك به ، عندما يصرخ صوت من وراء الباب : حنبعل العظيم ! جاء حنبعل ! فيلتفت المجتمعون كلهم صوب الباب ، ويدخل البطل القرطاجنى بجلال ، لابسا درعه وحوله اربعة من اركان حربه ، ويسير مسرعا الى حيث عطبة وهو يقول :

حنبعل — كلا . لاتقتلوه ! ابتعدوا عنه ايها السفهاء .

أصوات الجميع مندهشين ، وبعضهم يجهش بالبكاء تاثرا : حنبعل ! حنبعل ! هو بعينه . لقد جاء ! لايزال حيا ! ما اعظمه ! شكرا لك يابعل !

رجال من حنون يلزمون مقاعدهم ولا يقولون شيئا .

عطبة يستفيق ويجلس ، يرى حنبعل فيخفى رأسه بين يديه .

حنبعل — يالكم من رجال صناديد ! يالكم من ابطال ! تستطيعون هنا بين جدران المجلس ، ان تجهزوا على جريح . لكن لم يكن واحد منكم الى جانبى عند ما استحر القتل ، وعظم الكرب ، واحاط بي الاعداء فى حومة الوغى . بمثلكم ايها القاعدون خسرنا المعركة . وسقط الوطن ، واشرفنا على الهلاك .

معطى بعل — لو كنا إلى جانبك فى ساحة القتال ، لكنا قد قتلنا عن آخرنا ، ونحن لا نريد أن نموت !

حنبعل — إن موت جندى واحد فى ساحة المعركة . دفاعاً عن الحرية والوطن ؛ لأشرف من حياة ألف مثلك أيها الصبي .

معطى بعل يستر وجهه خجلا ويتوارى . ويتابع حنبعل كلامه ، متصدرا القاعة ، الى جانب عطبة المطروح ارضا :

إن عطبة ليس بخائن أيها القوم . بل أنتم هم الخونة . (حركات وتأوهات مختلفة) قدمتموه وتأخرتم . وأردتم أن يموت وقومه لكي تعيشوا . واستأثرتم دونهم بالثروة والجاه وخيرات البلاد . انه لن تستطيع

امة من الأمم ان تحيا حياة المذلة والخنوع والاستعباد . لو انكم أحسنتم السيرة . وحكمتم بالعدل ، وسويتم بين الناس . وكنتم إخوانا متكاتفين ، لما حلت بربوعنا هذه النكبة . ولما خذلنا البربري المظلوم ساعة الشدة والحرج .

إن من اعتبر رجال الشعب عبيداً . صيرهم لايفكرون الافي الانتقام (يأخذ عطبة من كتفه فينهضه) قم أخي ! (يقول للجند) انزعوا قيوده (فينزعها الجند .) أخرج فأنت حر . وبلغ قومك عنا انهم أحرار . إن عشنا بعد اليوم فالوطن لنا جميعاً . وإن متنا ، فالوطن لأبنائنا من بعدنا ، إلى الأبد

عطبة – (وقد استوى على قدميه . وواجه حنبعل) : هكذا ياحنبعل كانت سيرة أبائك الأولين . وهكذا كنا يداً واحدة على من سوانا . منذ اختطت عليشة "القرية الحديثة" انما اتملب قومك علينا . فاتملبنا على قومك . اماإذا ما رجعتم سيرتكم الاولى ، فوحق بعل وآلهة البربر أجمعين ، لنجاهدن جميعا لنعيش أحراراً سعداء ، أو نموت احرارا شهداء .

يتجه صوب الباب ثم يقف قبل الخروج ، ويقول لحنبعل :

إنني وقومي في استعداد . لك الامر وعلينا الطاعة .

الكاهن الاكبر – أي حنبعل . العدو على الباب . وجندك قد تلاشى امام شيبيو " . وقرطاجنة باتت في كرب عظيم . وأنت اليوم سبطها الاعظم . فماذ ترى ؟

حنبعل – في رجالنا بقية صالحة . وفي مخازننا سلاح كثير . واسوارنا منيعة ، وأقواتنا موفورة . لنستعد هنا لتلقي صدمة الرومان . فلن ينالوا منا منالا . ولنا أن نعتمد على عطبة وقبيلته . ثم لننظم المقاومة في الداخل ، فنقعد للرومان كل مقعد ، وننقض عليهم من كل جانب ؛ والدنيا لهم عدو ،

ومقاومتنا تستفز الامم المقهورة كلها . وتكون لنا الغلبة عليهم أخيراً .

زرقون — أنت ياحنبعل بطل من أبطال الكفاح والنضال . لكن ساعتنا هذه ساعة سياسة وحكمة . فإذا مانحن وقفنا فى وجه الرومان محاربين ، بما لدينا من بقايا جند وحثالة سلاح . محقونا ولن تقوم لنا بعد قائمة . فالرأي عندي وعند جماعتي هو مفاوضة الغالبين . لوقف الحرب . وانقاذ ما يمكن إنقاذه من تراب الوطن ، ثم نسعى لاصلاح ما فسد . والحرب ايها السبط سجال . وحياة الامم يوم لك ويوم عليك .

جلبة وضوضاء . واصوات النساء من الخارج ، يدخل جندي ، ويخاطب حنبعل .

الجندي — مولاي . نساء كثيرات من أهل قرطاجنة قد تجمهرن أمام المجلس ، يردن المثول بين يديكم .

حنبعل — ادخل علينا وفداً منهن . (يخرج الجندي)

عزري بعل — نحن رجال حرب ياحنبعل . ونحن أهلك وعشيرتك ليس فينا نذل ؛ ولا يوجد بين صفوفنا جبان . إنما نحن نرى أن ساعة الحرب قد انقضت ، وان المذاكرة مع العدو قد أصبحت ضربة لازب . فإن لم نجد وسيلة للتفاهم معه حول صلح شريف ، رجعنا لفكرك ، ومتنا عن آخرنا موت الكرام .

حنبعل — هذه تجربة خطرة . سترون أن العدو عدو دائماً . ومن انتظر من عدوه رحمة او شفقة ، باء بخسران عظيم .

يدخل الجندي ويقول :

الجندي — هذا وفد السيدات يامولاي .

(تدخل أربعة من السيدات . على رأسهن صافو . فتقبلن يد حنبعل والكاهن الاكبر . وتركعن أمام تمثال بعل . ثم تواجهن الجمع وتتكلم صافو)

صافو — أنا رسولة نساء قرطاجنة إليكم ، أيها البطل ، ويا معشر القادة والقدماء . ماذا أنتم فاعلون بنا ؟ ان العدو يتقدم مسرعاً نحو ديارنا . وقد علمنا أن جندنا قد تلاشى في جاما ولم تبق لنا من قوة تحمي الحمى . فهل تتركون نساءكم للفضيحة ، وأولادكم للهوان ؟ هل تريدون أن نباع في اسواق رومة جواري لصعاليك الرومان ؟ نحن بنات كنعان لا نرضى هذا العار . فإن كنتم معشر الرجال لا تدافعون عنا ، ولا تعملون ما ينقذ حياتنا وشرفنا ، فنحن بنات قرطاجنة نضع انفسنا تحت امرتك يا حنبعل . سر بنا ندافع عن الوطن . اذا تقاعس عن واجبهم الرجال . لقد عشنا في عزة وشرف . ونريد ان نموت فى عزة وشرف لك الامر وعلينا الطاعة ، والمجد للوطن .

معطي بعل — (لنفسه بصوت مسموع) وحق تانيت ان الدم قد غلى في عروقي .

حنبعل — أي صافو العزيزة ، قولي لبنات قرطاجنة أن في الوطن رجالا . وأن هذه الوجوه لن ترضى لشرفها أن ينهار . ولن تقبل أن تتدنس بالعار . سنتخذ القرار الذي ينقذ الموقف . ويصون البلاد ، فكن آمنات على الشرف مؤمنات بمستقبل الوطن . فنحن قوم نعيش أحراراً ونموت أشرافاً .

تنحني السيدات أمام حنبعل والكاهن الاكبر ، وتخرجن ، الا صافو ، فان معطي بعل يأخذ بيدها ويتقدم نحو القسم الامامي من المسرح ، بينما يكون حنبعل والكاهن الاكبر وبقية الحاضرين قد وقفوا إلى جانب تمثال بعل ، يتفاوضون ويتكلمون ويحاولون اقناع حنبعل . فترى اشاراتهم ولا تسمع أصواتهم .

معطي بعل — معبودتي صافو ؛ ما أبهاك وأنت ترتدين ثوب البطولة . إن الوطن في خطر حقاً ؛ لكن غرامي في خطر يفوق ذلك .

صافو — (متهيجة) إليك عني ايها الصبي . إن أمثالك من الشبان الذين تقاعسوا عن خدمة الوطن ، وتخاذلوا في ساعة الجهاد ، هم سبب نكبة الامة . وهم المسؤولون أمام التاريخ عن مصيبة الوطن . لقد مات الابطال في ساحة الوغى ، والعدو يخيم علينا من كل جانب ، وانت تتعامى عن كل ذلك ، ولا تفكر إلا في حبك وغرامك ؟ كلا معطي بعل ، لن يكون زوجي نذلا من القاعدين . جاهد ؛ وانصر وطنك ؛ وارفع راية أمتك ، ثم تقدم أمامي : فلربما كان لي معك يومئذ موقف آخر .

معطى بعل — (في حماسة وعزة) لقد كنت جبانا . ونشأت في وسط مالي علمني المذلة والخنوع ، والانغماس في ملذات المدنية ، وصيرني من الانذال القاعدين . لكن كلماتك يا صافو قد نفخت فيَ روح الحياة الحقيقية ، حياة الوطنية والشرف والكرامة . فلأ ندفعن مجاهداً في سبيل بلادي ، وأنت رمزها وصورتها . وقسماً بحق بعل رب القوة والبأس ، لأ كونن بطلا جديراً بحبك وتقديرك .

صافو — (تتناول سيفاً وتقدمه له فيأخذه) خذ هذا . واذهب في الطليعة ، وألهب الحماس في صدور الشباب أمثالك ، لتتأجج في قلوبهم نيران الحمية ، ويستقبلوا الحمام في ساحة الشرف باسمين . ثم ارجع لي بطلا فأحبك ، أو مت شهيد الحرية والاستقلال فابكيك !

ينحني امامها ويخرج بعزة ، وتبقى مشيرة بيدها الى الامام ، بينما ينزل الستار ، والجماعة حول حنبعل يتفاوضون .

الفصل الثانى

قاعة فسيحة فخمة على النمط الشرقي ، فيها رياش فاخر وزرابي مبثوثة ، وأثاث ثمين ، على اليمين تمثال بعل . وعلى اليسار تمثال تانيت . كرسي في صدر المجلس يجلس عليه السبط حنبعل ، وحوله على اليمين واليسار عدد كبير من الوزراء ورجال الدولة . ثلة من السيدات ، فيهن صافو ، تطفن على الحاضرين بأكواب وأباريق . القاعة تشرف على حدائق قرطاجنة والبحر يظهر من ورائها .

حنبعل — لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً ، فلا نرضى أن نعيش عيش العبيد . وما هي ، أيها الرفقاء ، قيمة الحياة الدنيا ، إن لم تكن حياة عزة وشرف وكرامة ؟

وزير — إن أعداءنا لئام يا حنبعل . رضخنا لشروطهم فازدادوا تجبراً وعتيا . وما اظهرنا لهم الخنوع والاستسلام ، الا وازدادوا تظاهراً علينا بالاثم والعدوان .

وزير آخر — أتعلمون أن الرومان قد أصبحوا يدعون بحرنا هذا : « ماري نوستروم » أي بحرهم الخاص بهم . ويدعون أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يبتل بمائه الا بإذن منهم ؟

حنبعل — إن هذا الغرور الفادح ، لهو داء الامم الفتاك . فالامة التي لا تعتمد إلا على القوة ، والتي يصيبها سلطانها بالصمم فيصدها عن سماع صوت العقل والحكمة، فبشرها بالخراب والاضمحلال ، ولو بعد حين .

علينا بالعمل يا رجال ؛ الاستعداد للأخذ بالثار ومحو عار الوطن . علينا بتنظيم صفوف المقاومة ، حتى إذا مادقت الساعة ، حطمنا الظالمين شر تحطيم . والصبر على الذل عار .

وزيـر — هذه وحق بعل فكرتنا أجمعين وهذا هو هدفنا الاسمى. لكن كيف العمل ، ولا يزال جسم الامة دامي الجراح من آثار المعمعة الاخيرة وقد خسرنا الحرب أمام رومة ، وخضعنـا لشروطها الثقيلة وسلمنا لها أسطولنا . ولم يبق بين ايدينا من البلاد إلا هذه الرقعة الضيقة التي هي أصل الوطن ؟

حنبعل — لا تنس أيهـا الصديق أن هذه الرقعة الضيقة التي هي أصل الوطن ، كانت الشجرة المباركة التي ثبت أصلهـا ، وامتدت فروعهـا يانعة زاهية . فتفيأ ظلالها كل الشعوب التي ربطت بينهـا جبال الاطلس رباطا من الدم ووحدة المصلحة ، لن تنفصم عراه في يوم من الايام .

إن روح الامة قوية ، وحب الانتقام قد تملك كل النفوس . وهذا هو رأس مالنـا في الحيـاة . إن خسارة معركة حربية ليس هو بالامر العظيم . إنما الخسران الحقيقي ، هو انهيار روح المقاومة في الامة . وخضوعها للظالمين خضوع المستكـين .

انتظري قليلا يا رومة الطاغية ! انتظري ، فلسوف ترين بعد حين ، مصرع الطغات الجبارين .

جندي — (يقف على البـاب معلنـا :)

مولاي ! جـاء ملك البربر مازيغ .

يقف الجميع . يدخل مازيغ في جلال . حاسر الراس ، لا بسا برنسا احمر ، يتقدم نحوه حنبعل ، فيلتقيان في منتصف القاعة ، ويتعانقان .

حنبعل — مرحباً بالأخ الحبيب . مرحباً بصديق السراء والضراء . أنت بطل يا مازيغ ، ورجالك البربر أشراف صـادقون .

يرجع الجميع لمقاعدهم ، ويجلس مازيغ الى يسار حنبعل ، بينما هذا يوالي كلامه :

حنبعل — لا ازال أراك وأنت تقف دون حصون قرطاجنة ، والسيف في يمينك يقطر من دماء الأعداء ، ومعطي بعل إلى جانبك يأخذ عنك دروس الطعن والنزال . وقومك يتقدمون من ورائك كأنهم الاسود الكاسرة ، فيلقون الرعب في قلوب الأعداء . آه يا مازيغ . لولا تلك المعركة الحاسمة وراء حصون قرطاجنة ، وما رأى الرومان فيها من بطولة قومنا من كنعانين وبربر ، وما استيقنته انفسهم من استعدادنا للموت عن آخرنا فداء هذه البقعة المطهرة من أرض الوطن ، لولا ذلك لحطمنا الرومان شر محطم . ولأصبحت قرطاجنة اثراً بعد عين .

مازيغ — أي حنبعل العظيم . لقد انتهت ساعة الحرب ، وجاءت ساعة الحكمة . فلنسترجع معاً في ميادن السلام ، ما خسرناه في حومة الوغى . إن الامة عاملة أيها السبط الاكبر . لقد حكمت بالعدل ، وسويت بين الناس ، ومحوت آثار العنصرية ، فدانت لك الرقاب ، واعترف لك الشعب بالجميل . وإذا عدل الحاكم ، انقاد المحكوم . لقد أصبح الفلاح آمناً في حقله ، والصانع جاداً في صناعته ، وعاد التاجر إلى نشاطه القديم ، إن الأمة تسترجع ثروتها ، وتستعيد قواها .

حنبعل — كل هذا جميل . كل هذا حسن . لكن الإنتقام يا مازيغ ! هل فكرت وهل فكر قومك في الإنتقام ؟ فإلى متى نصبر على إهانة الظالمين ؟ إلى متى نخضع لنصوص معاهدة أملت علينا إملاء ، فضربت علينا الذل والمسكنة ؟ متى ترانا نمزق القيود ونكسر الأغلال ؟

مازيغ — أي نعم ! إنما نحن قوم نعيش أحراراً أو نموت . لكن الانتقام والأخذ بالثار ، ليسا من شأننا وحدنا ، بل هو متعلق بما يكون لنا من محالفات وصداقات في الخارج . فنحن أضعف من روما

إذا ما وقفنا تجاهها متفرقين . لكنها تكون أضعف منا ، إذا ما نحن جمعنا حولنا كل الأمم المقهورة الخاضعة . وألفنا منها كتلة متينة .

وزيـر — رأيك أيها الملك مازيغ هو السداد . وذلك هو ما استقر عليه رأي مجلسنا منذ اشهر . لقد بعثنا بمعطى بعل ، يستنهض خفية همم الأمم المقهورة وراء حدودنا الغربية . ويذكرها عهد الوحدة وحياة الحرية والكرامة والرخاء . ويؤلبها حولنا ، حتى تقوم قومة رجل واحد ، للأخذ بالثار ، وكسر شوكة الظالمين .

مـازيغ — أترى معطي بعل هذا ، هو ذلك الشباب الجميل ، الذي كان أثناء المعركة الأخيرة إلى جانبي لا يفارقني أبداً : وقد ابتدأ الحرب وكأنه الأرنب ، فما كاد يحمي وطيسها ، وتحمر فيها الأحداق؛ حتى انقلب أسداً هصوراً : يقف أمام الأعداء كأنه جبل من حديد ؟

وزيـر — هو بعينه . لقد نزعت عنه صافو هذه (يشير إليها ، فتنثني دلالا وخجلا) ثوب الرفاهية والترف ، والهبت فيه نيران الحمية ؛ ثم دفعت به إلى ميدان الوغى ؛ فصيرته رجلا كما رأيت . وكأن المعركة قد أحيت فيه بطولة دفينة . فأصبح من رجالنا المعدودين.

مـازيغ — ولابدع في ذلك . ألم يقم نظام العالم كله على كلمة المرأة ، ونظرة أغراء من عينيها ؟

الـوزير — وإنه لمن محاسن الصدف أن تكون زيارتكم لنا في ساعة رجوعه . ان سياره قد أعلمنا بأنه قادم الساعة نحونا ، ونحن ننتظره .

مـازيغ — لنعمت الفرصة السعيدة . إنني لفي شوق لرؤياه .

جنـدي — (يقف تجاه الباب ، ويقول بعد التحية) :
مولاي جاء معطي بعل ، ومعه رجال .

يدخل معطي بعل جسورا . وقد تغيرت ملامح وجهه ، واصبح صوته جهوريا قاسيا . يدخل معه اربعة رجال احدهم اسود . يلبس اثنان منهم البرانيس ، ويرتدي احدهم نوعا من الحرام الذي يستعمله اهل البلاد التونسية . اما الاسود فيرتدي عباءة مخططة. يقفون صفا ويحيون التحية القرطاجنية .

حنبعل — مرحباً برسل الأمة ؛ رواد النضال ، وطلائع الإنقاذ .

معطى بعل — أرواحنا للوطن . وقلوبنا للأمة . وسواعدنا للإنتقام. خلقنا أحراراً . فلا نرضى المهانة . وعشنا وعاش آباؤنا من قبلنا سادة. فلا نقبل أن نعيش بعدهم عبيداً أذلاء . (يتعانق حنبعل ومعطى بعل)

صافو تسمع بفخار وتزدهي ، وتسوى قامتها . تتحادث سرا مع بقية السيدات .

حنبعل — وماكان من أمر رسالتك أيها الإبن الحبيب ؟

معطى بعل — تغلغلت يا زعيم الامة ؛ وفخر الوطن ؛ خلال نوميديا . وموريطانيا ؛ وجبت بلاد الجنوب ؛ فاستنهضت الهمم . وأيقظت الحمية في النفوس ، وخاطبت الملوك والامراء والقواد ورجال الشعب في أمر الإنتقام من الظالمين ، واسترجاع الحرية السليبة ، والتحرير من قيود الأعداء. لقد اجمعت الأمة امرها على اتباع اوامر كم متى حانت ساعة العمل ؛ والسير إلى جانبكم ؛ إلى النصر او إلى الموت. هؤلاء رسل ملوك وعظماء نوميديا وموريطانيا والسودان ؛ يؤكدون لكم على لسانهم أنهم يريدون عيش الحرية والكرامة ، أو موت الشرف .

الجميع — (في أصوات مختلفة) مرحى . مرحى . المجد لبعل العظيم .

يتقدم الرسل نحو حنبعل فيحتفى بهم وتلتف حوله بقية الجماعة ؛ بحيث لا يسمع من اصواتهم الا الهمس . يتقدم معطى بعل مغتنما هذه الفرصة نحو صافو ؛ فتغادر هي سرب السيدات وتتقدم نحوه باسمة فتشتبك ايديهما بحرارة ؛ ويقول لها بلهجه المغرم :

معطى بعل — صافو . حياتي . منتهي أملي ! تحت اسوار قرطاجنة ، كنت ارى في خيالي محياك ؛ فاتمثل فيه وجه الوطن ؛ وهو في حاجة إلى التضحية والفداء .

ثم إنني اثناء مغامراتي لجمع وحدة الأمة ؛ كنت لا ازال اسمع كلماتك النارية ؛ تدفع بي إلى الأمام ؛ وإلى الأمام دائماً ؛ حتى اقوم بواجب وطني ؛ واقضي حق امتي ؛ واكون اهلا لك يا صافو . فهل كنت موفقاً ؟ وهل احرزت على رضاك ؟ ومتى نتقدم امام هيكل تانيت العظيمة ؟

صافو — (في حنان ورقة) كلا يا معطى بعل . لم تحن الساعة بعد . حرام علينا ان نفكر في امر الزواج . والوطن المقدس لا يزال في خطر عظيم . إنني لفخورة بك يا معطى بعل . لقد اصبحت رجلا ؛ بل اصبحت خير الرجال . لكن شباب الوطن الطموح ؛ يجب ان يسير قدما في ميدان التضحية والفداء حتى يسمو إلى درجة الأبطال . لقد احببتك يافعا يا معطى بعل . واغرمت بك منذ معركة الحصون ؛ وفي نفسي ما في نفسك من لوعة الحب ومن نشوة الجوى . لكن يا حبيبي ، الواجب قبل الحب ؛ والوطن قبل الغرام . ان طريق التضحية لا يزال امامنا طويلا ؛ فلنسر فيه حتى نهايته ؛ سير الفدائيين المؤمنين .

معطى بعل — ما اصعب الانتظار . وما احر لواعج الشوق . لكن ذلك يهون يا صافو في سبيل الأمة . واي عذاب لايعذب ما دام في مصلحة الوطن ؟ فما دمت واثقاً بحبك ؛ مقتنعاً باخلاصك ؛ فسأكون كما تريدين ان اكون . ساقضي واجب الوطن ، وسأسعد بتحقيق امنية القلب .

صافو — (بدلال) انك لا تنسى ياحبيبي ان زواجنا لا يقع إلا على يد رجل مفارق للحياة !

معطى بعل — (متبسماً) آه ! الا زلت تؤمنين بأقوال العرافة الكاهنة ؟

صافو — أي نعم . إن كاهنة هيكل تأنيت لا تكذب ابداً . وسترى يا معطى بعل . سترى في آخر الأمر أننا لا نتزوج إلا على يد رجل مفارق للحياة .

معطى بعل — أنا لا أصدق هذا الخرافات !

صافو — الأيام بيننا يا حبيبي .

الكاهن الاكبر ، واثنان من الاعيان يدخلون . تعود صافو الى حيث السيدات ، وينضم معطى بعل للجماعة ويتقدم حنبعل ومن معه للقاء الكاهن الاكبر فيتوسطون القاعة :

حنبعل — مرحباً بالكاهن الأكبر ؛ رسول بعل العظيم ما وراءك ؟

الكاهن الأكبر — لا تزال مصائب الوطن عظيمة يا مولاي . فهذان كنعانيان قدما الساعة من صيدا ؛ ولديهما من الأنباء ما لا يسر أحداً .

وزير — لقد ازعجتنا يا حضرة الكاهن !

(الجميع يحيطون بالرجلين ؛ بينما يتقدمان نحو حنبعل . ويقول أحدهما)

الفينيقي — لقد كنا أيها البطل العظيم ؛ ويا رجال قرط حدشت الكرام ؛ نتتبع انباءكم باهتمام عظيم ؛ ونشاطركم على بعد الديار ؛ وشط المزار ؛ مصائبكم وآلامكم ؛ وكنا نعتقد ان ساعة خلاصكم وخلاص العالم كله سوف تدق ؛ عندما ينتصر الاغريق الذين يدافعون بحمية وحرارة وإيمان عن مدنيتهم وديارهم ؛ ضد غارة الرومان الهمج .

حنبعل – إن الحق ما رأيتم . فالبطل فيلبس الخامس ملك مقدونيا . هو حليفنا الوفي ؛ بل حليف الأمم التي اخضعها الرومان لنيرهم الثقيل ، ونحن في اقطارنا هذه ننتظر انباء انتصاره ، لننقض على الأعداء جميعاً ، ونرغمهم على إرجاع حرية الشعوب ، ونعيد مجد القرية الحديثة سيرته الأولى .

الفنيق – لكن وا أسفاه . لقد خابت الآمال . ان فيلبس الخامس قد انكسر شر كسرة . وحطمه الرومان ، افنوا رجاله واحتلوا ارضه . وانصبوا على بلاد الاغريق الزاهرة ، كأنهم الطوفان المخرب المدمر .

حنبعل يطرق مفكرا . بينما يظهر اليأس والانزعاج على بقية الحضور ؛ وهم يقولون في اصوات عديدة :

(الجميع) – مصيبة ! مصيبة ! كارثة ! ياخيبة الامل .

(يجلسون جميعاً في غم وهم . يقف حنبعل بقوة .

حنبعل – ارفعوا الرؤوس ! وحذار ان تتركوا اليأس يستولى على قلوبكم . إن حياة الافراد أعوام ، وحياة الأمم أجيال وأجيال ، فإذا ما خابت آمالنا اليوم ، فستتحقق آمالنا لا محالة غداً .

وحدوا الامة ، ومتنوا الصفوف ، واشحذوا العزائم ، واعتقدوا ان ساعة الخلاص آتية لا ريب فيها .

(جندي يدخل ، ويقول بعد التحية :)

الجندي – مولاي رسل من الرومان يطلبون الدخول .

حنبعل – (مندهشاً) من الرومان ؟ ليدخلوا !

الكاهن الأكبر – لقد ابتدأت النهاية ، رحماك يا بعل العظيم

(يركع امام تمثال بعل)

يدخل الجندي ووراءه اربعة من جنود رومة في نظام عسكري . يتوسطهم رجل يرتدي ملابس مدنية رومانية . يلقون جميعا السلام الروماني فيرد عليهم القرطاجنيون التحية الفنيقية . يقف الجنود . ويتقدم الرسول .

لاتونيوس — انا لاتونيوس روميوس ، رسول مجلس الجمهورية الرومانية إليكم .

حنبعل — مرحبا بالرسول الكريم . (بحدة) : وماذا يريد منا مجلس جمهورية روما ؟

لاتونيوس — لقد بعثوا بي رسولا إليكم ، لا نذركم شر المنقلب ، ولأخبركم بأن رجال روما يعلمون ما خفي من امركم وما ظهر ؛ وقد تحقق لديهم انكم ايها السبط حنبعل ، ورجال دولتكم تؤلبون ضدنا الأمم ، وتثيرون علينا الأقوام الخاضعين ، وتستعدون للإنتقاض عند اول فرصة .

وزير — ومن اين لكم هذا ؟

لاتونيوس — وما هي فائدة الجوسسة إذن ، ان لدينا عيونا منكم ؛ يلقون إلينا بالخبر اليقين ؛ ولنا في كل قطر ارصادنا ، فلا تخفى علينا من امر الأمم والشعوب خافية .

حنبعل — (محتدا) الموت للخونة !

الوزراء — الموت للخائنين .

لاتونيوس — إنني اقدم إليكم باسم مجلس الجمهورية الرومانية الإنذار الأخير : ان لم تكفوا منذ الساعة عن هذه المساعي ؛ وتضعوا نهائياً حداً لهذه الدسائس ؛ وترسلوا معنا رهائن من اشرافكم ؛ فجندنا

سوف يتقدم نحوكم في صبيحة الغد ؛ ويحطم ما بقي من دولتكم قائماً ؛ ويجعل مدينتكم هذه كوماً من رماد .

حنبعل — (محتداً) قل لرومة وللذين أرسلوك ؛ انه لا تزال فينا بقية صالحة من الرجال : وفي نفوسنا ما يكفي من شرف وهمة . لقد كنا قبلنا شروطها الثقيلة ، وخضعنا مكرهين لإرادتها الصارمة ، وسلمنا لها ما طلبت من قبل ؛ أما المذلة والهوان . فلا ؛ لا ، لا .

لاتونيوس — تدبروا الامر فالعاقبة وخيمة ، إن القوة بأيدينا ، وجندنا مستعد على الأبواب ؛ ونحن ننتظر الجواب .

(يحيي الرمانيون وينسحبون في نظام عسكري)

الكاهن الأكبر — قضى الأمر يا حنبعل ؛ ليس بيدنا من حيلة نستعملها ، او قوة نتظاهر بها . لنأمر رجالنا بالكف عن مساعيهم ؛ فساعة الإنتقام لاتزال بعيدة ؛ ولنسلم لرومة جماعة من أشراف القبيلتين ؛ حتى تكف عنا اذاها ، وتسكت عنا إلى حين ؛ فإن لم نخضع ؛ حطمتنا رومة تحطيماً لا قيامة لنا من بعده . إظهر لهم الطاعة والإنقياد ؛ ولا تنس ان الحيلة سلاح الضعيف .

حنبعل — وحق بعل وتأنيت ؛ وضحايا الوطن ؛ وارواح الشهداء ؛ لن تنال رومة مني ترضية اخرى ؛ الموت احب إلي .

الوزير — مولاي ، لاتكن سببا في تحطيم قرطاجنة ؛ وفضيحة نسائها ؛ وسبي اولادها فمهما تكن بطولتك عظيمة وصولتك جسيمة ؛ ومهما يكن رأيك سديداً ؛ ونظرك صائباً ؛ فنحن وحدنا اضعف من ان نقف امام رومة ، وننازلها مرة اخرى في الميدان ، انه ليس لنا بعد انكسار حليفنا المقدوني ، الا الصبر والانتظار .

وزير آخر — هذا هو الراي يا جماعة : فمهما كان تسليم الرهائن مؤلماً ومهما كان الخضوع جارحاً للقلوب الكريمة فإن رفض مطالب رومة معناه الموت والخراب .

الجماعة — (في اصوات مختلفة) هذا هو الراي . نعم . نعم .

الكاهن الأكبر — إن الحرب جريمة يا حنبعل إذا لم تكن القوى متكافئة . لقد اتفقت كلمة الوزراء والأعيان الساعة على إجابة مطالب رومة ، كما ستتفق بعد حين . ولا محالة كلمة مجلس القدماء . وويل ثم ويل للمغلوب الضعيف ، فأجبهم بالقبول ، وعلى الأمة ان ترفع المعرة متى سنحت لها الفرص .

حنبعل — (بعد تفكير) كلا ! ان رأس حنبعل لن تنحني ابداً امام الظالمين . لقد قبلت من قبل شروط رومة الجائرة ، يوم كان ذلك القبول واجباً وطنياً . بل ارغمت المتحمسين على القبول ، اثر معركة قرطاجنة . ولعلك لا تنسى (يشير إلى وزير) يوم رميت بك من مقعدك على الأرض عند ما اردت ان تحمل المجلس على رفض المعاهدة . لكن الوضع قد تغير . فكفى مذلة وكفى هواناً . اذا اردتم الرضوخ ، وقررتم الاستسلام ، فلن يكون ذلك ابداً على يدي . لقد صبرت على وطني مغلوباً ؛ لكنني لا اصبر على وطني مهانا ذليلا . انا مسلم لكم الآن امركم .

الكاهن — آه . لا . ابداً .

الجماعة — لا . لا تتركنا . لا . لا .

حنبعل — لقد قضى الأمر . وانتهى الجدال . فاختاروا لا نفسكم ايها القوم سبطاً غيري ؛ واستسلموا لرومة كما اردتم ، فسترون انها ستدوسكم بالأقدام . أما أنا فسأغادر قرطاجنة هذه الساعة . سأذهب لحدرموت

ومنها اركب البحر الى البلاد الفسيحة التي لم تدنسها اقدام رومة بعد.

صافو — انا معك حيث سرت ، وحق بعل لن افارقك.

معطى بعل — اجاهد معك اينما كنت . وفي اي ميدان اخترت لننتصر او نموت .

مازيغ — وانا معك ياأخي في الضراء ، كما كنا معاً في السراء ؛ اتبع خطاك الى النهاية .

بعض الوزراء — (يبكون اشفاقاً وتؤثراً)

حنبعل — (يلتفت لهم) : إن الدموع لا تعطل سير الحوادث ، ولا تغير مجرى التاريخ ، إنما تفتح المستقبل في وجوه الأمم ، سواعد العاملين ، وتضحية الفدائين ، ودماء الشهداء . لن يرى الظالمون وجهي في افريقيا بعد اليوم ؛ انما سيرونني اعترض طريقهم في كل مكان . فإن لم استطع الدفاع عن امتي فوق تراب الوطن ، فسأدافع عن امتي وعن وطني في كل مكان ؛ وفي كل ميدان . سأحارب الظالمين اينما كانوا . سأركب البحر ؛ سأجوب اقطار الدنيا ، سأجمع ضد المستعمرين الظالمين قوى الأمم المغلوبة كلها . سنسقط رومة ، ونحطم القاهرين . ليعلم كل جبار عنيد ، إن الكلمة الأخيرة إنما هي للأمم . وإن القول الفصل انما هو للحرية ضد الطغيان . هيوا اولادي ورفقائي ، لنحارب رومة اينما وجدنا ميداناً لحربها ، لننتقم للوطن . ولنفك عنه اغلاله ونكسر قيوده . النصر او الموت .

يسير خارجا . يتبعه مازيغ ومعطى بعل واربعة من الاشراف وصافو ينحنى لهم الجميع ماعدا الكاهن الذي يعود للركوع امام تمثال بعل .

الخارجون مع حنبعل — الوداع ! النصر او الموت يسقط الظالمون .

(ينزل الستار)

الفصل الثالث

معسكر الملك انطيوخس صاحب سوريا . خيمة كبرى يرى داخلها صناديق كثيرة واكياس مكدسة . الملك يجلس عند مدخل الخيمة ؛ وحوله رجال حاشيته من اغريق وعرب . حركة كبيرة في الجند بين رائح وغادي . اثار الهم والحزن بادية على الجميع .

الملك – (يسأل قائداً منحنياً امامه) وماذا كان من أمر مدينة ساردة ، وكيف حالها بعد انسحابنا منها ؟ ويلي ! وتعساً لي ! كيف ياترى يسجل التاريخ على الملك انطيوخس المكافح . هذا الإنهزام الشنيع ؟

القائد – إن النار قد التهمت يا مولاي سائر اطراف المدينة . وقد سد الرومانيون على اهلها كل المنافذ . فمن انقذ منهم نفسه من السنة اللهيب . هلك بحد السيف .

الملك – وما بقي لدينا من جند يمكن الاعتماد عليه ؟

القائد – إن فرقة الحرس المقدوني لا تزال ثابتة امام العدو . فهي تتقهقر بنظام . حامية مؤخرتها . اما الكتيبة العربية فإنها قد لبست ثوب البطولة والمجد . فلولا مهارة قائدها النعمان . وقطعه السبل في وجه الرومانيين . لكان العدو قد احدق بنا الساعة واستأصل شافتنا .

وزير – وهل انقذتم اموال الدولة . وجئتم بخزائن الأموال ؟

الملك – دعني من خزائن الأموال ، فالمال يوجد في كل مكان ، وتكلم عن الثروة التي لا تعوض . قل : هل انقذتم المكتبة . كما امرتكم . وهل جئتم بالكتب ومخطوطات دار النسخ ؟

القائد – كلا يا مولاي ، ويا للأسف . لقد حمل علينا اثناء العملية

فوج من مشاة الرومان كانوا يحملون المشاعل ؛ ووقفت جماعة من رجالنا تقاتل دون الأبواب بشجاعة وحمية ، فتغلب عليهم سيل الأعداء ، واستأصلوهم ، ثم انتصبوا على دار العلوم ، كاعصار فيه نار ، وإنهالوا على كتبنا العزيزة تمزيقا واحراقا ، فتركوها رماداً تذروه الرياح .

الجميع — (يتأوهون ، ويتألمون ، ويضربون يداً بيد .)

الملك — يا لهول المصيبة ، ويالعظم الكارثة . وويل ثم ويل لهؤلاء الهمج الوحوش. الا يعلم اجلاف رومة ماذا صنعوا ؟ اليس فيهم رجل رشيد ؟ واعجبا ! كيف تستطيع كف بشر ان تمتد بالسوء إلى ثمرات عقول الأجيال المتابعة منذ فجر الإنسانية ، وإلى عصارة قرائح العلماء والفلاسفة من الأغريق ، وهم نخبة البشر المختارة ؟ ماذا ؟ ايجرأ اعداء الإنسانية على اتلاف العقل البشري ، بإحراق مخلفات ارخميدس وافلاطون ، وارسطو وسقراط وعشرات من امثالهم ؟

سيقولن التاريخ يوماً ، والتاريخ اصدق الشاهدين ، اننا خلفاء الاسكندر ذي القرنين المقدوني ، قد سمونا بالفكر البشري ، ونشرنا العلوم والفلسفة ، وجعلنا للقيم العقلية المكانة الأولى والمركز الممتاز في الأمم . بينما لايحمل اعداؤنا الرومانيون معهم ، إلا معاول الهدم ، وفؤوس التحطيم ، واساليب النهب واللصوصية ، ثم هم لا ينشرون بعد ذلك إلا الليل الدائم ، والظلام المخيف .

وزير — إنهم لكذلك يا مولاي . واكثر من ذلك . لكن الا ترون إننا نحن السبب في هذه النكبة المؤلمة ، وإننا نجني الساعة ثمرة الغلطة ، ونبوء بسوء عاقبة التردد والاحجام ؟

القائد — لو اننا وفينا يا مولاي بالوعد لحنبعل ، وامددناه منذ الساعة

31

الأولى بالعشرة، الاف مقاتل، والالف فارس والثلاثمائة سفينة، وقد قطعتم له عهداً بذلك، لكنا الساعة قد اخمدنا انفاس رومة. وحررنا بلاد اليونان كافة من ظلامها ومن ظلمها. لكننا اكتفينا بالمظاهر، والاقبالات الضخمة، وتركنا رومة اثناء ذلك تستعد وتتجهز. والحياة يا مولاى فرص: فمن لم يهتبل الفرصة، وتركها تفلت من بين يديه، ذاق من بعد وبال امره، وباء بخسران مبين.

الملك — لقد سبق السيف العذل. ان المقادير قد وضعت بين ايدينا سلاحاً لم نحسن استعماله. ان خطط حنبعل كانت عظيمة. وكانت حرية تحقيق النصر، كفيلة بتحطيم رومة وخنقها في مهدها.

لكن ... تعساً للحسد؛ وسحقاً للانانية. لقد خشينا ان يتفاقم ويعلو نفوذ حنبعل؛ ويسمو ذكره فوق كل إنسان. إذا ما نزل على راس جند الاغريق والعرب بلاد الرومان فدوخها. وكانت يومئذ خلوا من الرجال والسلاح. واخمد جذوتها. واصبح فيها صاحب السلطان المطلق. فكانت النتيجة ما ترون: حطمنا آماله في تحرير وطنه المنكوب. وخسرنا ما فتحناه من بلاد الروم. وتركنا الوطن اليوناني يرسف في قيود رومة، ويتخبط في اغلال الرق والعبودية.

القائد النعمان — (يدخل مرتديا لباسه العربي، وعلى رأسه العقال) السلام على مولاى الملك، ورجاله الاكرمين.

الملك — وعليك السلام يا بطل العرب. يا رجل العزيمة والثبات والايمان. إن موقفك قد اصبح مضرب المثل، وبسالة قومك الامجاد قد انقذت الموقف، وحددت مدى الكارثة. اين هم رجالك الآن؟

النعمان — لانزال يامولاى نكتنف جانبي الطرق التي تسلكها الفرق الرومانية، فنصدها عن التقدم نحو معسكركم؛ لكن موقفنا هذا ليس

بالثابت المستمر . فأما جمع ونفير وتقدم جديد ، ولا اخال ذلك ممكناً الآن ، بعد نكبة الجند الاخيرة ، ومقتل خمسين الفاً من رجالنا ذبحوا في ساردة ذبح الاغنام ؛ واما انسحاب منظم ببقايا الجند والجموع ، نحو مملكتنا ببلاد الشام .

الملك — إننا ننتظر حنبعل ، لنعلم منه حقيقة المعركة البحرية التي تولى كبرها ، فنتيجة هذه المعركة البحرية ستكون فصل الخطاب . ولن نغادر مركزنا هذا حتى يأتينا خبر منه .

القائد الاغريقي — (للنعمان) إذا ما حطم حنبعل عمارة الرومان ، وقطع عنهم خط المدد البحري ، كانوا مضطرين للتوقف او الإنسحاب ، واننا لنجد في الحالين متسعاً من الوقت لتلقي المدد ، وتجهيز جند جديد واعادة الكرة ، اما إن كانت الاخرى ....

جندي — (يدخل وينحني امام الملك) مولاي ، جاء القائد حنبعل في جماعته .

يدخل حنبعل في لباسه العسكري . وحوله جماعته التي هاجرت معه ؛ ما عدا صافو ، وقد انضم اليهم بعض رجال اليونان والعرب . يقف الملك ويتقدم نحوه

حنبعل — السلام على الملك انطيوخس حبيبي العظيم ، وتحية لرجال دولته . اما الاخبار فكلها شر وسوء .

الملك — هذا ما كنت اخشى ، وهذا ما كنت اتوقع ؛ لكن سلامتك ايها البطل العظيم ، تخفف وقع المصاب ، وتفتح في وجوهنا آفاقاً جديدة من الأمل . كيف كانت المعركة ؟

حنبعل — إن العمارة الصغيرة التي وضعتموها تحت امرتي يا مولاي في آخر الوقت ، قد توسطت بحر اليونان ، واتخذت مركزها تعترض

سير الاسطول الروماني. ولقد ابدى رجالنا من ضروب الشجاعة والبطولة ما لا يستطيع لسان وصفه. فكان الرجل منا يقاوم الاربعة او الخمسة، والسفينة من سفننا تحمل على عشرة من سفن الاعداء. واستمر القتال اياماً وليالي، الى ان تغلبت الكثرة على البطولة، فكان رجالنا يسقطون مستشهدين، وكانت سفننا ترسب ملتهبة، إلى ان لم يبق منها إلا القليل، واحدق بنا الرومان من كل جانب، فكان آخر واجب بقي علي، هو انقاذ الفلول من رجال وسفن، وفك منطقة الحصار، والوصول إلى سواحل البلاد.

الملك — لقد قمت بالواجب ايها البطل، ووفيت بالعهد. واننا لنعترف اعتراف الاشراف من الرجال، اننا لو تبعنا نصائحك، واصغينا إلى اقوالك، ونفذنا برامجك منذ الساعة الاولى، لما حاق بنا هذا الدمار الاليم.

حنبعل — إن الحياة يا مولاي كفاح مستمر، وجهود متواصلة؛ وان وراءك بلاد الشام، مهد الملك، ومنبت الاقيال. فإن كنا قد خسرنا معركة بلاد اليونان، وتلاشت مؤقتا احلامنا في تحرير مقدونيا واثينا، وتخليص العالم من الإستعمار الروماني الفظيع، فلنستعد الإستعداد العظيم لمعركة بلاد الشام واصقاع العرب. فتلك معركة آتية لا ريب فيها. إن مطامع الرومان لا تقف عند حد؛ وانهم ليريدون ان يجعلوا هذا البحر كله ملك يمينهم.

انتم ايها الملك ورجال دولتكم مؤتمنون على حضارة الاغريق ومدنية الكنعانيين معاً؛ فاعملوا لتبقى بلاد الشام وارض كنعان حرة طليقة. ولتظل نبراساً ينشر على العالم انوار الحكمة والمعرفة، إلى ان تفتح الأقدار في وجه العالم صفحة اخرى تمحي ظلام رومة، وتحطم سلطانها الفظيع.

الملك — ولنعم الراي السديد ! وهل نعتمد عليك يا بطل قرطاجنة لتنظيم الجند الجديد . واعداد العدة لتلقي صدمة الأعداء ، او للوثوب عليهم إذا ما حانت الفرصة ؟

حنبعل — إن واجبي الذي اوقفت عليه حياتي ، ليدعوني الى جهات اخرى يا مولاي . اما انت . فالانسحاب الى ما وراء جبال الطوروس اجدر بك الآن . والسعي في مصالحة الرومان . ولتقبل شروطهم ، فلن يتبعوك الساعة الى بلاد الشام ، لأنهم لا يزالون في حيرة وارتباك من امر المقاومة اليونانية . واما انا . فلن اترك الكفاح ، ولن اضع السيف ولن يمر يوم مما بقي لي في هذه الحياة الدنيا ، دون ان اقاتل فيه رومة . وأقف في وجه الرومانيين . سأتخذ طريقي نحو بلاد الشمال اليوناني ، وسأضع سيفي واضع رجالي تحت تصرف ابروزياس ، ملك بتينيا الاغريقي ، فبلاده اليوم هي ولا ريب الهدف الأول للاستعمار الروماني . هكذا قررت . وبهذا وعدت .

الملك — يؤلمنا ان نفترق يا حنبعل . وإنه ليملأ نفوسنا غماً وكمداً ، ان تكون خيبة الأمل ، وخسارة المعركة . آخر الأمر بيننا . لقد اقبلناك كبطل ؛ وكنت بيننا في اهلك وعشيرتك ووطنك . لقد وحدت بيننا العقيدة . وتآخينا في ميادين الكفاح والنضال . دون حرية نقدسها ، واوطان نفديها بالمهج والأرواح .

إننا وسائر الاغريق والشعوب الحرة ، لنكبر فيك هذه العزيمة التي لا تلين ، وهذه الهمة التي لاتستكين . فواصل جهادك . وتابع مغامراتك ؛ ولعل النصر يبتسم لك في مواقع اخرى ، فتجني الأمم المغلوبة على امرها ثمرة انتصارك .

حنبعل — سأحفظ للملك انطيوخس العظيم ، ذكرى لا تمحوها الايام .

وسيحفظها بعدي التاريخ. وتتناقلها من بعدنا الأجيال. فالتاريخ للأمم، هو يوم قيامتها، وهو ساعة نشورها. ومن يدري. لعلنا نلتقي يوماً على انقاض رومة العاتية!

قائد – (يدخل وآثار الاعياء بادية عليه): مولاي. إن العدو قد انتهى من امر ساردة وما حواليها. ولم يبق لدينا إلا القليل من الجند المتعبين، لا يملكون سلاحا ولا عتاداً. وإن ثلاثة من الفرق الرومانية تقتفي آثارنا، وهي على نحو خمسة مراحل منا: لاتصدها اثناء الطريق إلا بسالة فرسان العرب، لكنهم يسقطون صرعى في الميدان واخشى ان يتحطم هذا السد، فيغمرنا السيل. لا بد من اتخاذ قرار سريع.

الملك – الساعة حقاً حرجة. فما رأيك يا حنبعل؟

حنبعل – الإنسحاب يا مولاى بأسرع ما يمكن. فليس امامك من ساعة يمكن ان تضيع. فلترسلوا بالقائد النعمان مع فرسان العرب ليحرسوا لكم معابر جبال الطوروس. حتى إذا ما اجتزتموها آمنين. بقوا هنالك مرابطين يصدون عنها رجال الرومان. ولتجعلوا من ورائهم رجال الحرس المقدوني رديفاً. ولا اخال الرومان يحاولون اتباعكم الى هناك.

لكن لاتنسوا يامولاى ان خطراً هائلا يترقبكم من جهة الجنوب. فاليهود هنالك يتربصون بكم الدوائر. وانهم لأصحاب مطامع ليس لها حد. ثم انهم لا ينسون تأديبك لمملكة يهوذا. وبطشك بجندها. فإذا ما بلغتهم انباءهذه الهزيمة، بادروا الى الإنتقاض. ولم يتورعوا عن مهاجمة المملكة من خلف. فارسلوا بفرقة القائد عصام التي تحرس بلاد الشام. لتضرب اوتادها بأرض يهوذا. واعلموا انه لا راحة لبلاد الشام وبلاد العرب معاً. الا متى وقع التخلص من مملكة يهوذا. التي تقف حجر عثرة في الطريق، وتفصل البلاد شطرين.

الملك — سيكون كل ذلك حسب رايك يا حنبعل . فاسحب كتائبك ايها القائد النعمان ، وسر على راسها لتهيئوا لنا سريعاً مجاز الطوروس . وانت (مشيراً للوزير) ابعث الساعة بالأوامر الى القائد عصام ، ليحط على ارض يهوذا . (ينحني القائد النعمان اولاً ، ثم ينحني الوزير امام الملك) .

حنبعل — ارسلوا حالا للرومانيين رسولا يسألهم عن شروطهم لقبول الصلح . فأنتم اثناء الاخذ والرد تكسبون وقتاً يمكنكم من سحب معظم القوى ، ونقل كتائب النعمان .

الملك — لا اخال الرومانيين يقبلون الصلح . لكن لنحاول التجربة . (للوزير) ابعث اليهم بقائد على راس وفد ، ومرهم بأن يبذلوا كل ما في وسعهم لتمديد امد المذاكرة .

الوزير — أمرك يا مولاى (ينحني امام الملك ويخرج) .

حنبعل — لا ريب لدى أنهم سيهتبلون الفرصة ، لانهم يودون ألا يبتعدوا عن الميدان اليوناني . ولعلهم سيفرضون عليكم شروطاً ثقيلة . فمن المصلحة ومن الحكمة قبول تلك الشروط ، ولو كان من بينها تسليمي إليهم .

الملك — هذا لا يكون أبداً .

حنبعل — أقبلوا لكي تخففوا من غلوائهم ، وأكون قد غادرت البلاد . فلن يظفروا بي ؛ ولن تخفروا من جراء ذلك ، الذمار . لكن حذار أن يمسوا حريتكم واستقلالكم في بلاد الشام وما يليها . ان جراحات الامم تلتئم بسرعة ، مادام يجرى في عروقها دم الايمان واليقين ، وما دامت تحرس أمجادها ، وتحترم تاريخها ، وتمجد أبطالها ، وتمهد السبل في وجه الأجيال التي تأتي من بعد .

الملك — لعمري ، إن قبل الرومان الصلح معنا ، بعد انتصارهم هذا ، وبعد فناء جيشنا ، فإن قبولهم هذا يعتبر انتصاراً عملياً لا تقدر له قيمة ، وإنه سيضمن حياة المملكة من بعدنا عدة قرون .

حنبعل — والآن نتركم في وديعة الوطن . فهيا يا رجالي إلى الرحيل . الجهاد يدعونا ، والواجب يحدونا . والوطن المنكود من ورائنا يستغيث بنا ، وينتظر نتائج كفاحنا .

معطى بعل — لن تنام رومة هادئة . ونحن نحمل وراءها سيف الإنتقام . فالى الأمام إلى الأمام . (يلتفت للقائد الاغريقي) : وأين هي صافو ؟

القائد — إنها لا تفارق خيمة الجرحى . تضمد الكلوم ؛ وتواسي الموجوعين . وتبذل من روحها ومن إيمانها لإيقاد الحمية في النفوس . (يقول لأحد الجنود) إسرع واخبر صافو بالرحيل ، وآت بها لتكون مع الركب .

حنبعل — (نحو الملك والوزراء والقواد الذين يصطفون تجاهه) : وداعاً أيها الرفقاء المنكوبون . لقد التقينا مجاهدين ، وافترقنا مجاهدين . فانتظروا أنبائي من ميادين أخرى . وعسى أن يجمع بيننا يوم نصر قريب .

الملك — اقتبلناكم فيما مضى أبطالا ؛ ونودعكم اليوم أبطالا . وما خابت أمة انجبت مثل هؤلاء الرجال ، فسيروا مجاهدين موفقين ، والموت للظالمين .

(يتعانق الملك وحنبعل ، بينما ينزل الستار .)

الفصل الرابع

المشهد الأول

قاعة عرش فخمة . رياش اغريقي فاخر . استوى الملك ابروزياس صاحب دولة بتينيا على العرش وجلست على عرش آخر الى يمينه الملكة . حولهما على اليمين وعلى الشمال مقاعد عديدة ، عليها وجوه الدولة والقواد والوزراء .

الملك — إن زيارة فلامينينوس ، قائد رومة الجبار العنيد ، لا تبشر بخير : وإنني من أمرها لفي حيرة وارتباك .

الوزير — سيحضر الساعة فى الموعد المحدد . وسنرى ماذا يحمل لنا من أوامر رومة ومن نواهيها . إن هذا التدخل الروماني في أمور دولتنا ، وتلويحهم باستعمال القوة الغاشمة كلما املت علينا كرامة الأمة ومصلحة الوطن الوقوف في وجوههم ، لمما يقض مضجعنا ويجعلنا في كل حين عرضة لوخز الضعة والمهانة .

الملك — بل ان خطر الرومان أعظم من ذلك أيها الوزير . إن استقلالنا اليوم فى خطر ، وحريتنا المقدسة التي بذلنا في سبيلها المهج والأرواح ، توشك أن تنهار .

قائد — ماذا ؟ ترى يا مولاي ان الرومانيين يفكرون في مهاجمة بلادنا الآمنة ؟ وتحطيم مملكة بتينيا ؟

الملك — وماذا تراهم يصنعون بعد أن غلبوا أنطيوخس ملك سوريا ، واجبروه على الإنسحاب وراء بلاد الطوروس ؟ انهم لا محالة يوجهون أنظارهم النارية إلى ما بقي حراً من بلاد اليونان ، ليخضعوه

تنبيه ـ الملك ابروزياس ، بالراء ، لا ازوزياس ، كما رسم غلطا فى بعض الصفحات

لاستعمارهم الفظيع . ثم أن هؤلاء القوم الجبارين لا ينسون لنا أننا آوينا عدوهم الألد ، وخصمهم الفحل ، حنبعل العظيم . فلن يهدأ للرومان بال ، مهما دوخوا الأمصار ، ومهما ملكوا الأقطار ، مالم يتمكنوا من هذا الرجل الذي حاربهم في الشرق كما حاربهم في الغرب ، وقعد لهم كل مقعد ، وألب عليهم الأمم والشعوب . ونفخ من روحه القوية فى سائر الأقوام الخاضعين . فجعلهم يقفون فى وجه الإستعمار الظالم والإحتلال البغيض ، موقف العنف والصلابة والإستشهاد . ثم أنه لا يكاد يخيب في جهة حتى يطلع عليهم من جهة أخرى . فكأنما هو شبح الإنتقام يتتبع خطى القوم الظالمين .

قائد — إنه لبطل . هكذا يكون عظماء الرجال . هكذا تكون التضحية فى سبيل الحرية . وهكذا يكون العمل لنزع أغلال الوطن .

الملك — رومة تعلم أننا آوينا حنبعل ، واقتبلناه اقتبال الصديق العظيم ، واحللناه المكانة اللائقة بمقامه الكبير . وإنها لتعلم ، كما يعلم الناس أجمعون ، أن هذا البطل هو الذي وطد أركان ملكنا المتداعي . وأخضع خصومنا ، وأخمد جذوة الحرب التي أوقدتها مملكة أومين . وإن الشعب قد أحبه ، والجند قد افتتن به ، فهي لا محالة ستتبعه إلى هذا المكان . وهذا ما يجعلني كثير الهم ، شديد القلق ، لأنني أعرف أن رومة لا ترحم .

وزير — مهما غلبت رومة من دول . ومهما قهرت من أمم فهي لا ترى إنها أحرزت على الفوز الا متى أخمدت أنفاس حنبعل . واستحوذت عليه حياً أو ميتاً .

وزير آخر — وكيف ينال منه الرومان منالا ؟ لقد وعدناه بالحماية ، ووعد الحر دين . إن حنبعل ليس هو بطل قرطاجنة فحسب ، بل هو بطل الدنيا . وإنه لايجاهد اليوم في سبيل أمته الكنعانية وحدها ، بل

يجاهد في سبيل حرية كل الأمم، واستقلال كل الشعوب المقهورة المظلومة. هو اليوم سيف الأمم الضعيفة؛ وهو حامل راية المقاومة في وجه المستعبدين.

القائد — لا خوف علينا. ان في بلادنا مهما صغرت. رجالا يفدون الوطن بالأرواح. فلنكن على استعداد لتلقي صدمة الرومان إذا ما وسوس لهم شيطان الغرور بمهاجمة أرضنا. وانتهاك حرمة بلادنا. مهارة حنبعل معنا. وإلا هنا زوس العظيم يحمينا.

وزير ثالث — ياله من رأي عقيم. إن رومة قد قهرت الدنيا. واحتلت مقدونيا وسوريا. وأحاطت بنا من كل مكان. فهل ترانا نلقي بأنفسنا للتهلكة. لكي ننصر كنعانياً قرطاجنياً مهما سما امره؟ كلا. لن يكون هذا أبداً.

الملكة — ألا تدري أنك تريد أن تقودنا أيها الوزير الى هاوية النذالة؟ أتريد أن نتحمل أمام عالم الاغريق. وامام التاريخ. عار الخيانة؟ كلا. إن وطننا الشريف الأبي لن يتدنس بهذه الوصمة.

جندي — مولاي. رسل رومة يرجون شرف المثول بين ايديكم.

الملك — (محتداً) ليدخلوا....

يخرج الجندى ثم يدخل ووراءه اربعة من رجال الرومان. يتوسطهم فلامينينوس. يلقون التحية الرومانية، ويتقدمون نحو الملك، فيقف لهم.

الملك — مرحباً برسل رومة العظيمة واهلا وسهلا بالقنصل فلامينينوس القائد البحري الكبير. ما وراءكم؟

فلامينينوس — ايها الملك ابروزياس. إننا باسم مجلس الشيوخ الروماني،

وبأمر منه . جئنا نشعركم بأننا نعلم المكانة التي نالها بينكم عدونا حنبعل ، ونعرف الدسائس التي يبذلها لكي يعيد الكرة علينا ، ويجعل مملكتكم هذه مركز حركة لمهاجمة البلاد العائشة تحت راية السلام الروماني . إننا قد قهرنا جميع من نصر حنبعل ، وتتبعناه من قطر إلى قطر . ونريد الساعة ان نطوي نهائياً هذه الصفحة ، ونستريح من هذا المشاغب الأنكد ، فبأمر مجلس الشيوخ نريد منكم ان تسلموا لنا عدونا حنبعل ، نرجع به مصفداً إلى رومة ؛ فإن لم تفعلوا فى الحين ما امرتكم ، فجندنا سيقتحم مملكتكم ، ويحطم دولتكم ، ويبيع نساءكم واولادكم فى سوق الرقيق . فكروا في الأمر ، وسنرجع بعد حين .

يسلمون السلام الروماني ويخرجون ، بينما يسكت الجميع سكوت حزن وفزع .

الملك — (في لهجة يائسة) يا لها من مصيبة لم يقع في مثلها سوى من ملوك اليونان الأقدمين . ماذا ؟ الخيانة أو الموت ؟

الملكة — (في جلال) أما الخيانة ياسيدى فلا سبيل إليها . لئن نموت عن آخرنا في سبيل الشرف والكرامة . فذلك أجدر بنا من تسليم حنبعل بطل الحرية والاستقلال لأعدائه . ينكلون به أمام وحوش رومة المتعطشين للدماء . كلا يا سيدى . النار ولا العار .

وزير — الساعة حرجة جد الحرج يا مولاى . هذه ساعة عقل لا ساعة عاطفة . وماهو جندنا ؟ وما هي جموعنا تجاه الفرق الرومانية العظيمة التي دوخت الدنيا ؟ ثم أنكم أدرى بسيرة القائد البحرى القنصل فلامينينوس الوحشي . تعلمون كيف يقدم على انتهاك الحرمات . وتخريب المعالم . وإحراق المدن والدساكر وذبح السكان . والتمثيل بالأبرياء . وارتكاب الفظائع والموبقات ليتخذ منها تسلية وملهاة لجنوده الذين هم

جماعة من الذئاب الكاسرة . ماذا ؟ أنلقي بالمملكة بين يدى هذا الوحش الضاري . وليس لنا حليف ينصرنا . أو صديق يأخذ بأيدينا ؟ إن رومة ستحطمنا ، وفلامينينوس سيجعلنا مثلا في العالمين .

وزير آخر — الرأي عندى : هو أن نسلم لهم حنبعل ونستريح . إن تحمل هذه الفضيحة لأخف وقعاً من تحمل مسؤولية تحطيم المملكة على يدنا .

وزير — عندى راي آخر . لنخرج حنبعل ومن معه سراً من بلادنا بكل سرعة . وليذهب حيث شاء . فلن نخون الذمار وشرف العهد ، ولن نعصي كذلك أوامر رومة .

وزير آخر — ليس هذا برأي . إن رومة لن تغفر لنا افلاتنا حنبعل من بين أيدينا . إنها ستهاجمنا وتنتقم منا انتقاماً فظيعاً . ونتحمل المصيبتين معاً : مصيبة ابعاد الصديق بعد قطع العهود ، ومصيبة الاحتلال والتنكيل . كلا . لنسلمه وكفى .

الوزير الأول — مهما كان الدواء مراً ، فهو الدواء الوحيد . لا مندوحة لنا عن تسليمه . فليطف الرومانيون ظمأهم من دمه . علهم بذلك يكفون عن امتصاص دماء الشعوب .

وزير — أي نعم . لا مناص من تسليمه .

الجماعة — (في أصوات مختلفة) نعم . نعم . نسلمه . نعم .

الملكة — (تجهش بالبكاء) يا للفضيحة ويا للغدر . سيلعننا التاريخ ، وستتبعنا السبة إلى الأبد .

الملك — إذن . فاقبضوا عليه بغاية الحذر ، وبكامل الاجلال ، وحذار من إهانته ، فبطل مثله ، لا يجب أن يهان . ويلاه ! ماذا أنا فاعل ؟ ويل للضعيف ، وتعساً وسحقاً للجبار الذى لا يرحم . هلم بنا يا جماعة نسجد

لزوس العظيم ، عله يخفف عنا وقع المصاب الأليم .

يخرج الملك متثاقلا ، ويتبعه الجميع في غم وكدر . تبقى الملكة وحدها على العرش تنتحب ؛ ثم ترفع راسها وتكفكف دمعها :

الملكة — لا ! أبداً ! إن ملكة الاغريق لا تكون شريكة الرجال في هذه النذالة الفاضحة .

(تصفق بيدها ثلاث مرات ، فتدخل الوصيفة)

هيلانا — (تركع أمام الملكة) أمر مولاتي ؟

الملكة — هيلانا ، يا رفيقة صباى ومستودع أسرارى ، الىي فانقذيني وانقذى معي شرف المملكة وسمعة اليونان ، اسرعي إلى الحصن المجاور للقصر ، وآتني بجنبعل وجماعته في الحال ، قبل فوات الأوان ، وحذار أن يراك أحد .

هيلانا — أمرك يا مولاتي ، سيكون ما تريدين (تركع أمامها ثم تخرج جارية)

الملكة — إذا ضعف الرجال أمام القوة ، وخضع الملوك والأمراء لسلطان الجبروت ؛ فالنساء يستطعن إنقاذ الشرف .

ينزل الستار . ثم يرتفع بسرعة عن المشهد الثانى .

المشهد الثاني

[نفس الزمان ونفس المكان]

الملكة — قلبي يتمزق . ونفسي تكاد تنقطع . أتراهم يقبضون عليه وقد انتهوا من صلاتهم . قبل أن تأتيني به هيلانا ؟

هيلانا — (تدخل لاهثة متعبة) جئت بهم يا مولاتي ، وقد شعرنا الحرس المنبث في كل مكان ، وأحاط الجند بالقصر .

الملكة — إدخليهم حالا . (تقف لاقتبالهم)

يدخل حنبعل وقد ظهرت عليه علائم الشيخوخة ، وحوله رجاله الذين هاجروا معه ، وصافو ينحنون جميعا امام الملكة.

حنبعل — ما بال مولاتي الملكة ؟ وهل من خطر يتهددها أو يهدد مملكة بثينيا ؟ لقد أصبحت شيخاً يا مولاتي . لكن سيفي لا يزال بتاراً ؛ ودم مهجتي لا يزال حاراً ، في سبيل حرية الشعوب أحيا ، وفداء حرية الأمم أموت .

الملكة — أي حنبعل العظيم . داهية أصابتنا ، وكارثة ألمت بنا ، فلا يستطيع صرف ذلك أحد عنا . لقد جاء القنصل فلامينيوس على رأس وفد رومة الظالمة ، يطلبون تسليمك إليهم .

حنبعل — يا لهم من أنذال لئام . ألا يحترمون في شخصي قيمة الجندية ، وشرف الإنسان ؟ أنهم يعتدون عليكم بهذا الطلب اكثر مما يعتدون علي.

الملكة — انهم أنذال يا حنبعل . لا يعرفون عاطفة الشرف والمروءة . لكن يوجد من هو أنذل منهم .

معطي بعل — ومن ذا الذي يستطيع أن ينغمس أكثر من الرومان في حمأة النذالة ؟

الملكة — إنهم قومي . ووزرائي ورجال بلاطي . إنهم لأكثر لؤماً ؛ وأعظم نذالة . لقد قرروا تسليمك الساعة للأعداء . (الجميع يضعون أيديهم على مقابض سيوفهم ويندهشون . وينظر بعضهم بعضاً)

حنبعل — ماذا ؟ أيوجد في الدنيا من يستطيع ارتكاب هذه الخيانة ؟

الملكة — أي نعم . إنهم ارتكبوها تحت سمعنا وأبصارنا . والآن لقد قمت بواجبي ، وأرحت ضميري ، وأعلمتك بما هم صانعون ، فكن على حذر ، وعالج الموقف بما ترى . (تخرج بجلال . فينحني لها

الجميع : ثم تقول وهي عند الباب) :

الملكة — اما نحن فعلينا لعنة الأجيال ؛ واما انت ايها البطل . فلك الخلود

حنبعل — هذه هي النهاية . ايها الأبناء والرفقاء .

صافو — لنخرج حالا . ولنغادر البلاد . لنذهب إلى فارس او بلاد ما بين النهرين . او لننسحب إلى بلاد العرب . ولنستمر على مقاومة رومة إلى النهاية .

معطى بعل — هيهات هيهات ! لقد تبعنا الجنود . وسدوا في وجوهنا كل المنافذ . لم يبق علينا إلا ان ندافع عن انفسنا . ونموت شهداء الحرية والوطن . والسيوف في ايدينا .

حنبعل — كلا ! لن تشهروا السيوف في وجه من آوونا ونصرونا ، ولو انهم خدعونا من بعد مكرهين . اما انا فقد انتهيت ؛ واما جهادكم انتم فلسوف يستمر . وسيرثه من بعدكم ابناؤكم . ما دام العدو جاثماً فوق صدر الوطن . إن المقاومة قد انتهت في رجل . لكن المقاومة سوف تستمر في الأمة . إن رومة لن ترى وجه حنبعل بعد اليوم ؛ لكن شبح المقاومة الذي تجسم في حنبعل ، سيقض مضاجعها إلى الأبد . كلا يا رومة اللعينة كلا ! لن تلتذ ذئابك بالولوغ في دم حنبعل .

معطى بعل — (مندهشاً) وما ذا انت فاعل ؟

حنبعل — (بجلال وسكينة) لن اقع حياً بين ايدي الرومان . ان اوصدوا دوني الأبواب ، وسدوا المنافذ ، فخلاصي ها هنا (يشير إلى خاتمه الفضي في اصبعه) لقد كنت منذ اربعين سنة اتوقع مثل هذه الساعة الرهيبة . واحضرت لها ما يلزمها من علاج .

الجميع ينظرونه مندهشين ، بينما يتناول خنجره فيحدث به ثقبا في الخاتم ، ويمتص منه سما زعافا

حنبعل – (يسقط على مقعدٍ متأوهاً) آه، الساعة يا رفقاء جهادي سيغيب عنكم حنبعل. فليسترح بال رومة اليوم. إنما الويل لها في الغد القريب. ستشق رومة من الكأس التي جرعتها الامم. وإن مصرع الظالمين لوخيم.

معطى بعل – (بتجلد وثبات) وماذا تأمرنا ان نصنع من بعدك؟

حنبعل – ارجعوا مسرعين لأرض الوطن. واعملوا على مقاومة اليأس والقنوط. وحدوا صفوف الأمة. ونظموا المقاومة. فالأعداء لن يتركوكم تستريحون. وانت يا زعيم الأمازيغ الأحرار، كن يداً واحدة مع بني كنعان. كونوا إخواناً في السراء والضراء. انتم بنوا سلالةٍ واحدةٍ. تسكنون وطناً واحداً. فكونوا يداً على من سواكم. إن طغيان رومة سيمضي. وسيمضي من بعده كل طغيان آخر. ولا حياة إلا للأمم الشاعرة بوجودها. المجاهدة في سبيل حريتها. المحافظة على كيانها ووحدتها.

(يتأوه ويلتوي على مقعده من شدة الألم)

آه. اقتربوا مني. لقد اصبحت لا اراكم. صافو معطى بعل تعاليا.

صافو ومعطى بعل ينحنيان على ركبتيه ويبكيان. يأخذ حنبعل يد صافو ويضعها في يد معطى بعل.

حنبعل – هذا زواجكما على يد رجل ميت. كونا سعيدين بالتضحية والجهاد، عيشا عيشة الشرف. او موتا في ميدان النضال موتة الأبطال. (يرفع راسه في آخر قوة، وهو يعاني سكرات الموت): رومة اللعينة! لقد اقسمت على عدائك للأبد، وها انذا اموت عدوا لك ايتها الغادرة الخؤون. (تخور قواه) وداعاً وطني. وداعاً امتي. وداعاً رفقاء جهادي. ويل للظالمين. انا اموت فلتحي الحرية، والمجد للوطن!

يموت فتسقط رأسه على جانب الكرسي ، في جلال وعظمة .
يركع حوله رفقاؤه يبكون وينتحبون .
يدخل الملك والملكة ورجال الحاشيه ؛ يرون المنظر فيقفون مصعوقين .
جماعة حنبعل يبقون راكعين حول الكرسي لا ينظرون الداخلين .
الملك يتقدم نحو حنبعل ؛ وينحني امامه .

الملك — ما اعظمه حياً . وما اعظمه ميتاً . وما اعظمه في الخالدين .

الجندي — مولاي . رسل رومة .

يتخذ الملك والملكة والوزراء مقاعدهم . ويبقى الكنعانيون حول بطلهم . يدخل الرومانيون فيؤدون التحية ويسيرون نحو الملك . الملك يشير إليهم بيده نحو حنبعل . ينظرون ويقفون وقد فهموا . ينحنون امام حنبعل ثم يواجهون الملك .

الملك — ارجعوا لرومة . فقولوا لها إنها قد امنت غائلة حنبعل .
لكن لتحذر غائلة الشعوب المظلومة . فالطغيان يصول ثم يندحر ؛
وحرية الأمم لا بد ان تنتصر .

الملكة — وحق زوس العظيم . ان حنبعل الميت المغلوب .
لأعظم منكم معشر الرومان . وانتم احياء منتصرون .

(يخرج رسل رومة في خيبة ظاهرة .)

الملكة — (تقف وتقول في جلال) :
لتعلم الأمم . وليسجل التاريخ . انه لا عظمة ولا مجد ولا خلود .
إلا لمن عاش مجاهداً في سبيل الحرية . ومات شهيداً في سبيل الوطن .

ينزل الستار

بيانات تاريخية

السلام على الطريقة القرطاجنية هو رفع الكف اليمنى نحو الكتف . مما يشبه تكبيرة الاحرام . أما السلام على طريقة الرومانيين فهو الانحناء ومد الذراع أفقياً كأنها الرمح .

فنيقيا = من اقدم الدول المتحضرة في الدنيا . كانت تقع على سواحل بلاد الشام . واهم مدنها صور وصيدا وطرابلس وعكا . والفنيقيون يدعون انفسهم «بني كنعان» وهم من اصل سامي عربي . ولغتهم مزيج بين العربية والعبرية . وقد كانوا اول امة تجارية بحرية في العالم . فسفنهم كانت تصل بلاد الانكليز وبلاد الصين . وقد اكتشفوا صناعة الزجاج واشتهروا بصنع الحلي ونقش المعادن . واخترعوا الأحرف الهجائية . واسسوا مراكز تجارية على سواحل بلاد المغرب منها اوتيكة (عتيقة) وبجاية . وجيجل . وتنس . وطانجة ، فكانوا اول امة عرفت البربر واختلطت بهم . ونشرت بينهم حضارة وعلوم الشرق .

عليشة = وتدعى ايضاً ديدو ؛ اميرة فنيقية . غادرت مدينة صور صحبة حاشية كبيرة . فراراً من جور اخيها الملك الذى اغتال زوجها . فحطت اثقالها على الساحل الإفريقي . واختطت مدينة قرطاجنة .

قرطاجنة = وهو تحريف كلمة : قرطه حدشت اى القرية الحديثة . مدينة امتازت بحسن موقعها وطيب مناخها . وقد عظمت وامتد عمرانها ما بين جبل سيدى ابي سعيد وبحيرة تونس . واصبحت اعظم مدن البحر المتوسط . ثم انفصلت عن تبعيتها لمملكة فنيقيا . واسست ملكاً ضخماً ، امتد بصفة سلمية حتى عم سائر انحاء المغرب . ومخر بحارتها المحيط حتى

وصلوا إلى بلاد الكمرون (رحلة حنون) . وكانوا اول من اكتشف قارة امريكا وتركوا فيها جالية منهم . [راجع الجزء الخامس من تقويم المنصور] ولقد تضخم سلطان قرطاجنة وازدهرت تجارتها وعظمت ثروتها . فأخذت توسع في جزائر البحر المتوسط . وهنا اصطدمت بالدولة الرومانية الناشئة . فنشبت بين الفريقين معركة من اعظم معامع التاريخ . تدعى الحروب البونيقية . ابتدات اولاها في جزيرة صقلية سنة ٢٤٦ ق.م. وانتهت سنة ٢٤١ . وقد خسر القرطاجنيون فيها صقلية وتوقف توسعهم التمديني في البحر المتوسط .

والحرب الثانية البونيقية . هي حرب حنبعل - فيما بين سنتي ٢١٨ - ٢٠٢ قبل المسيح . ابتدات في اروبا . وانتهت بكارثة جاما . وهي قرية على مقرب من مدينة الكاف . وكانت نتيجة هذه الحرب تخلي قرطاجنة عن مملكاتها في اروبا وإفريقيا . وتسليم اسطولها .

اما البونيقية الثالثة . فقد وقعت بين سنتي ١٤٩ - ١٤٦ ، وانتهت بأنهيار قرطاجنة . وقد ارتكب الرومانيون اشنع جريمة تاريخة يومئذ . اذ اتلفوا المدينة واحرقوا سائر ما فيها . وسبوا ما بقي من رجالها ونسائها . فأعدموا مدينة اصيلة وقضوا على حضارة راقية . فلم يبق من علوم وفنون القرطاجنيين اى شيء . وكانت مقاومة قرطاجنة النهائية مضرب المثل في الشجاعة والثبات والتضحية .

ثم اعاد الرومانيون بناء مدينة قرطاجنة . واتخذو منها عاصمة لملكهم الافريقي . وحذا حذوهم الوندال . ثم الروم . وقد انهارت شيئاً فشيئا وحطم الوندال اكثرها . وخربت الثورات عمرانها . واتلفت اواخر ايام الروم بقاياها . إلى ان حطم الفاتح العربي حسان بن النعمان ما بقي منها قائماً . كيلا يفكر الروم في استرجاعها .

حنون وبرقة = قبيلتان عظيمتان كانتا تسكنان قرطاجنة . وتؤلفان الطبقة الحاكمة فيها . وقد كان الخلاف مستحكماً بين الحزبين باستمرار

حنبعل = تركيب مزجي من كلمتي [حن بعل] وبعل هو معبود الفنيقيين والقرطاجنيين . وقد جاء ذكره في القرآن . وأغلب اسمائهم مضافة إليه . كصدر بعل . وعزري بعل . وحن بعل . [ويدعوه الغربيون أنيبال أو هنيبال] .

وهو ابن عملكرض (هملقار) من عائلة برقة . اشهر ابطال الحرب في الدنيا . قديماً وحديثاً . وقد جمع إلى مهارته الحربية حسن السياسة وفكرة الأخوة الوطنية الصادقة . اراد ان ينتقم لوطنه من رومة ، وان يسترجع مكانة قرطاجنة التي فقدتها اثر الحرب البونيقية الأولى ، فجند الجنود واحسن التدبير . وسار على راس جيش عظيم . فوطد ملك قرطاجنة في بلاد اسبانيا . واجتاز جنوب فرنسا وضم اهله إلى قضيته وجعلهم حلفاء له . ثم اخترق بجنده جبال الالب الهائلة واستعمل اقصى مهارته وحيله حتى تمكن من دخول بلاد الرومان . ونكب الرومانيين نكبة هائلة في مدينة كانة . سنة ٢١٦ . فاستعدوا للدفاع عن رومة وجمعوا بها بقايا جندهم . وارسل حنبعل يطلب المدد من قرطاجنة للقضاء نهائياً على رومة . لكن الخلافات الحزبية ودسائس عائلة حنون عاقت ارسال المدد . فكانت النتيجة ان حنبعل بعد ان قضى فصل الشتاء بمدينة قابو . حيث استسلم جنده للراحة والنعيم . اضطر للعودة سريعاً إلى افريقيا ، لأن القائد الروماني شيبيو ، قد نزل بجنده وعتاده ليقضي على قرطاجنة ، فدارت بين الفرقين معركة جاما (زاما) الحاسمة التي تغلب فيها الرومانيون . وخضع القرطاجنيون لصلح شنيع ، ثم ان حنبعل استلم زمام السلطة بقرطاجنة . واحسن السيرة . ووحد صفوف الأمة ،

فعادت الرفاهية لتلك المدينة العظيمة . واخذ يعد العدة لمحاربة رومة من جديد . لكن هذه تفطنت للأمر ، واشترطت على قرطاجنة شروطاً ثقيلة ، فلم يقبل حنبعل الخضوع ، وغادر البلادفي جماعة ، فنزل ارض الشام التي اسس فيها يومئذ اليونانيون دولة عظيمة . وصيروها مركزاً من اعظم مراكز المدنية . وكان يتولى امرها الملك انطيوخس الكبير وكان الرومانيون قد تغلبوا على بلاد الأغريق ، وحاولوا القضاء على كل الممالك الأغريقية . (الأغريق هم سكان بلاد اليونان الحالية) فحاول انطيوخس انقاذ بلاد الأغريق ومدنيتهم ، واقبل حنبعل اقبالا عظيماً ، واستعان به على حرب خصومه ، لكنه خشي استفحال نفوذه . فلم ينفذ خططه ، ولم يمكنه من المدد اللازم . فتغلب الرومانيون عليه . واضطر انطيوخس للصلح مع الرومان ، على ان ينسحب إلى ماوراء جبال الطوروس الفاصلة بين الشام وبلاد الأناضول . وسار حنبعل بعد ذلك إلى مملكة بثينيا ، وهي مملكة يونانية صغيرة تقع على الساحل الغربي من بحر مرمرة ، وكان يحكمها الملك ابروزياس . فتقبلت تلك المملكة حنبعل قبولا حسناً ، واخذ البطل القرطاجني يستمر على اعماله ضد رومة ، ويؤلب عليها الشعوب ، إلى ان طالب القنصل فلامينيوس الطاغية الجبار من ملك بثينيا ، تسليم حنبعل إليه ، ولم يجد الملك الضعيف بداً من قبول ذلك الطلب ، لكن حنبعل لم يرض الوقوع حياً بين يدي اعدائه الذين سدوا في وجهه كل الأبواب ، ففضل الموت بامتصاص سم كان في خاتمه . وبذلك انتهت صفحة من المجد ومن البطولة لا يعرف التاريخ لها مثيلا . وبقي اسم حنبعل في العالم ، مضرب المثل في البطولة وأصالة الرأي وحسن التدبير ، والثبات على المبدأ القويم في سبيل الوطن والحرية مدى الحياة .

(إنتهى)